مؤتمر طهران

الدكتور عبدالستار قاسم

10/صفر/1421

انتهى مؤتمر طهران ببيان يصعب أن تكون له انعكاسات بعيدة المدى على الساحة الفلسطينية أو على الساحة الإسلامية فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، حتى أنه يصعب أن تكون له نتائج ملموسة على المدى القريب أو البعد التكتيكي الآني. ويبدو أنه مجرد نسخة مكررة عن مؤتمرات يتم عقدها بين الحين والآخر ولا يُسمع لها رنين سوى رنين الخطابات وربما معها صيحات الخلافات أو صليل احتكاك الآراء ذات التباين الواسع. أصدر المؤتمر النداءات والوعودات ودعا إلى تقديم العون المستطاع لفلسطين والانتفاضة بذات الطريقة التي اعتدنا عليها عربيا وأحسب أن النتائج لن تكون مختلفة.

حاولت طهران من خلال هذا المؤتمر أن تقدم شيئا للقضية الفلسطينية وللانتفاضة انطلاقا، حسب ما تكرره باستمرار، من التزامها بمعركة المسلمين ضد الصهاينة وبتحرير الأرض المقدسة واستعادة الحقوق الإسلامية. لكن نجاح المحاولة لا يرتبط حقيقة بالنوايا وإنما بالعوامل الموضوعية التي تحيط بالمؤتمر والمؤتمرين والقضايا المطروحة على جدول الأعمال. العامل الموضوعي أهم بكثير في تحديد النتائج من النوايا الذاتية على الرغم من وجود انعكاسات عملية لها. حتى أن المسألة تخرج عن العامل الذاتي لأن الذاتي في هذه الحالة قد ارتبط بالموضوعي وتقيد به، فلم يعد يملك حرية الاختيار وتم تضمين حريته بحرية المجموع.

لم يكن هذا المؤتمر فريدا من نوعه في نتائجه وإنما يشترك فيها مع مؤتمرات أخرى شبيهة مثل مؤتمرات المنظمة الإسلامية والقمة العربية. تخرج النتائج متميزة عادة بالوهن وتثاقل الخطى والاجترارية وذلك لأسباب موضوعية منها:

أولا: اختلاف المؤتمرين في منطلقاتهم نحو حل القضية الفلسطينية. هناك من يظن أن العرب والمسلمين قد استنفذوا طاقتهم على المواجهة العنيفة للعدو الصهيوني وأن لا مجال أمامهم الآن سوى مد اليد لتلك التي حاولوا كسرها ولا بد من البحث عن حل سلمي للقضية. لم تعد الحرب ممكنة وهي خارج تفكيرهم لأنهم غير قادرين. وفي المقابل هناك من يظن أن العرب والمسلمين لم يخوضوا حربا حقيقية حتى الآن إلا تلك التي خاضها حزب الله وكان موفقا فيها. فإذا استجمع العرب والمسلمون قواهم فإنهم قادرون على دحر هذا العدو. يخفي هذا الجدل الاستقطابي بين طياته منطلقات سياسية أخرى هامة تتمثل في:

1 - يمجد أصحاب الحل السلمي الوضع العالمي الذي يجنح حسبما يواكبه من تركيز إعلامي وسياسي نحو حل المشاكل سلميا حول طاولة المفاوضات. إنهم يرون أن العالم قد تطور حضاريا نحو نبذ العنف واللجوء إلى قوى العقل والحكمة التي تقود إلى فهم الآخر وتفهم مواقفه وتقدير احتياجاته وإمكاناته. بينما يرى أندادهم أن العالم الآن أحادي القطب وأن الهيمنة الأمريكية تحول دون الحلول العادلة لمختلف القضايا وأنه من المهم السعي حثيثا نحو التكتل صونا للحقوق من الانتهاكات الأمريكية. يرى هذا أن التعاون في سبيل الإقرار بحل النزاعات بسلام وهدوء عبارة عن مسؤولية أخلاقية بينما يرى ذاك أن مثل هذا التعاون في ظل موازين القوى الحالية عبارة عن استهتار بالحقوق.

2 - تبعية البعض للسياسات الأمريكية والقبول بما تطرحه الولايات المتحدة من رؤى لما يجب أن تكون عليه الأوضاع في المنطقة. بينما يتمسك البعض بضرورة التحرر من التبعية وتبني برامج تقود إلى استقلال في اتخاذ القرار ولو نسبيا. وبين هؤلاء وأولئك هناك طيف من المواقف (أو اللامواقف) حيال هذه المسألة.

ثانيا: النظرة إلى الانتفاضة متباينة حسب تباين الحضور. يرى بعض الحاضرين أن الانتفاضة عبارة عن حدث تكتيكي يخدم أغراضا آنية مثل تحسين شروط المفاوضات مع إسرائيل أو الحصول على عروض إسرائيلية أفضل مما كان، وأن كل الخطوات نحو الدعم يجب أن تفي بأغراض آنية إسعافية وألا تتجاوز أفق الانتفاضة أو سقفها. أما آخرون فيرون أن الانتفاضة يجب أن تتطور نحو عمل استراتيجي ضد الاحتلال وأن تأخذ مداها المقاوم الذي يرغم إسرائيل على التسليم بحقوق الثعب الفلسطيني. ولهذا يرون ضرورة تطوير البرامج والسياسات التي تعزز صمودا فلسطينيا استراتيجيا وبدعم عربي وإسلامي متعدد الجوانب المالية والعسكرية والديبلوماسية. ومن بين الحاضرين من يقلص مواقفه حسب مطالب السلطة الفلسطينية ورؤاها ولا يفضل أن يجتهد رأيه أو أن يتعب نفسه بما هو أكثر مما مطلوب فلسطينيا.

ثالثا: يختلف الحضور في رؤيتهم لأدوارهم من حيث ترتيب أوضاع الانتفاضة والتدخل بشؤونها. منهم من يرى أن الانتفاضة عبارة عن شأن فلسطيني داخلي ولا شأن للآخرين بها إلا بمقدار ما يطلبه الفلسطينيون وحسب الاستطاعة، ومنهم من يرى ضرورة التدخل لتخفيف حدة العنف وتسهيل العودة إلى طاولة المفاوضات التي يعتبرونها إنجازا سياسيا هاما قد تم على مستوى المنطقة، بينما يرى آخرون ضرورة التدخل لمنع العودة إلى المفاوضات التي يعتبرونها تراجعا فلسطينيا وعربيا خطيرا. ويرى آخرون أن الانتفاضة عبارة عن شأن خاص بالقيادة الفلسطينية وليس بالشعب الفلسطيني بكافة أطره وفصائله وأحزابه، وأن القيادة هي التي بدأتها وهي التي تنهيها بالطريقة التي تراها مناسبة.

رابعا: في محاولة البحث عن سبل الدعم للانتفاضة الفلسطينية هناك من يصب تفكيره على الدعم المالي أو العيني الذي يمكّن الشعب الفلسطيني من تأمين متطلبات العيش، وهناك من يرى أن مثل هذا الدعم يُساء استخدامه مما يلحق الأضرار بالشعب الفلسطيني من حيث إفراز البغضاء والكراهية بين الناس والتنافس على سرقة الأموال العامة. وهناك من يظن أن الدعم المالي يجب أن يتم توجيهه إلى القيادة الفلسطينية لتمكينها من مواصلة مشروعها السلمي مع إسرائيل وإنما بصورة أكثر فاعلية وحيوية، بينما هناك من يظن أن الدعم المالي ضروري ولكن يجب أن يكون ضمن إجراءات ومعايير تضمن وصوله للمحتاجين من أبناء الشعب الفلسطيني وعدم وقوعه في قبضة اللصوص الذين ثبت انتهاكهم للقيم الأخلاقية بصور فاضحة.

خامسا: يسود الشك علاقات بعض المشاركين في المؤتمر. دول تنظر بعين الريبة حيال بعضها البعض ويصعب تعاونها كما يصعب المحافظة على هدوء الحملات الإعلامية والسياسية الموجهة ضد بعضها. وهذا شك يميز حتى علاقات فصائل فلسطينية مما يحول دون تعاونها بشكل مؤثر ومثمر. قد يستمع المرء إلى كلام جميل يوحي بالتعاون بين الدول أو بالوحدة الوطنية على الساحة الفلسطينية، لكن التجارب تشير إلى أن الكلام الجميل قد يخفي تحته مشاعر تعاكسه. وبحكم التفاعل الذي يلمسه العديد من

النشطاء سياسيا وإعلاميا من السهل أن يرى المرء كيف يتحول الشك إلى مداهنات وكلمات توهم الغائب بأن الأمور تسير حسب قواعد الأخوة والتضامن والمشاعر الطيبة المتبادلة.

لم يكن من المتوقع أن يخرج مؤتمر طهران بأفضل مما خرج فيه من نتائج بهذا التشعب والتباينات والاختلافات. من الناحية الموضوعية التي لا علاقة لها بالذاتية أو التمنيات أو الرجاء لا يمكن صهر كل هذا التباعد والتناقض في بوتقة واحدة تقفز بالانتفاضة أو المواجهة مع إسرائيل قفزة نوعية. هكذا مؤتمرات لا تستطيع أن تقفز عن ذاتها وأن تتجاوز مكوناتها وعناصرها ولا يمكن إلا أن تخرج بنتائج الحد الأدنى التي يمكن أن توفر على المؤتمرين الحدّية والانفعال وتبادل السباب والاتهامات، وعادة تنصب الجهود من أجل الخروج بقرارات تمثل القاسم المشترك لما يمكن الاتفاق عليه صياغة وليس بالضرورة عمليا. هكذا مؤتمرات لا يمكن أن تخرج بنتائج ذات بعد استراتيجي لما يتطلبه ذلك من توافق في الرؤى وتقارب في السياسات وتحديد متطابق لفريق الأعداء وفريق الأصدقاء. أما إن حصل وتم ذلك فإنه لا يُتوقع التزام كل الفرقاء فيما تم الاتفاق عليه. تم في الماضي التوصل إلى قرارات ذات بعد استراتيجي ولم يتم الالتزام بها وانتهت القرارات كما أنها لو لم تكن. فمثلا اتخذ مؤتمر القمة عام 1967 قرارا ينص على أنه لا صلح ولا اعتراف ولا مفاوضات مع إسرائيل ولكن اعترفت بعض الدول العربية بقرار مجلس الأمن 242 بعد فترة وجيزة من انفضاض مؤتمر القمة والذي ينص على التفاوض مع إسرائيل والصلح معها والاعتراف. وعلى ذلك يمكن أن نقيس.

مؤتمرات من هذا القبيل لا تقوى إلا على اتخاذ قرارت تكتيكية آنية ذات الحد الأدنى من التعاون الممكن بين الأطراف. ولهذا تتركز القرارت على دعم مالي مؤقت له علاقة بالحياة اليومية وعلى استنكارات ووعودات براقة لا تجد طريقها نحو التنفيذ، وعلى البحث عن حلول ضمن أطر دولية مثل هيئة الأمم المتحدة. حتى قرارات من هذا القبيل يصعب الالتزام بها. فمثلا قررت القمة العربية الأخيرة إحياء المقاطعة العربية لإسرائيل لكن لم يحصل تفعيل لمؤسسة المقاطعة، وكأن (إن لم يكن بالتأكيد) أن القرار تم اتخاذه لإرضاء أطراف عربية وليكون حبرا على ورق. وأيضا قررت القمة ضرورة عدم التواصل مع إسرائيل لكن أطرافا عربية عدة بمن فيها الطرف الفلسطيني ما زال يتواصل. بمعنى أن مؤتمرات ذات حضور بهذا التباين الموصوف أعجز من أن تتخذ قرارات صلبة تجد طريقها نحو التنفيذ من قبل الأطراف. إنها مؤتمرات أقرب إلى الاستعراض منها إلى البحث عن برامج ووسائل تقود إلى الخروج من المآزق أو إلى حل المشاكل أو مواجهة التحديات.

هذا ومن المحتمل أن تعرقل مؤتمرات من هذا القبيل الرغبة وقوة الدفع لدى بعض الأطراف المشاركة للعمل من حيث أن مستوى المقررات قد يكون أقل من الطموحات والرغبات والإمكانات. ربما يكون لدى دولة، على سبيل المثال، رغبة في أن تقدم دعما عسكريا لدولة يتهددها العدوان لكن مقررات المؤتمر تكتفي بتقديم الدعم الديبلوماسي. قد ترى تلك الدولة أن التمشي مع الموقف العام أفضل من التفرد، وقد ينعكس هذا سلبا على قدرة الدولة المعتدى عليها. ومن المحتمل أن تخرج الأمة من المؤتمر أكثر ضعفا من الوضع الذي يمكن أن تكون فيه بدون مؤتمر. قد يكشف المؤتمر العورات، وقد يخشى الأعداء من زيادة الضغط حتى لا ينعقد مؤتمر قد يتمخض عنه قرارات تؤثر سلبا عليهم. أي أن الهيبة قد تكون في عدم انعقاد مؤتمر وإنما في التلويح به. وقد رأينا تاريخيا كيف أن أغلب مؤتمراتنا فضحت أمرنا وقلة حيلتنا وعجزنا وجعلت الأعداء أكثر جرأة في الاعتداء علينا.

ربما من الأفضل أن تكون هذه المؤتمرات ذات أبعاد اجتماعية بدل أن تكون ذات أبعاد سياسية أو اقتصادية أو عسكرية. من المحتمل أن تساهم المؤتمرات الاجتماعية في تعارف أفضل بين المؤتمرين وأن تساهم في تأليف القلوب وتطييب الخواطر. فإذا استمر المؤتمر فترة من الزمن تراوح الأسبوعين وعلى أرض متنزه واسع بدل الفنادق فإنه من المحتمل أن تتطور صداقات وتفاهمات متبادلة قد تؤدي إلى تغييرات سياسية وعقائدية ورؤيوية تسهل مستقبلا التعاون على مستويات تتعدى البعد الاجتماعي. تنهج بعض الدول هذا المنهج من خلال اللقاءات الاجتماعية والمشاركة في رحلات صيد أو استجمام، وبإمكان العرب والمسلمين أن يطوروا النهج إلى مؤتمرات تبتعد عن السياسة والمسائل الشائكة عل في تطوير العلاقات الشخصية ما ينعكس إيجابا على القضايا العامة للأمة. فضلا عن ذلك، تحل اللقاءات الاجتماعية مشكلة إلحاح الناس على ضرورة اللقاء والتداول في مختلف القضايا دون أن يكون هناك إلزام أو توقع بصدور قرارات تأتي في الغالب مخيبة للآمال.

على الرغم من كل التمنيات بنجاح هكذا مؤتمرات إلا أن الموضوعية العلمية تبقى الأهم في برمجة السلوك سواء على المستوى الشخصي أو الجماعي. وقد خاب من لحق بتمنياته على حساب التفكير العلمي والمنهجية العلمية. جميل أن يلتقي أصحاب الشأن ويتحدثوا بشؤون العامة، لكنه من الأجمل أن يلتقي من لديهم القدرة على اتخاذ القرارات التي يمكن أن تنقل الأمة إلى حال أفضل. من الوارد وكما حصل حتى الآن أن أغلب المؤتمرات من قبيل مؤتمر طهران قد ولدت إحباطا أكثر مما ولدت تفاؤلا، ومن الأجدى الانتقال إلى نمطية مؤتمرية جديدة. فكلما انحصر المؤتمر على المتقاربين في رؤاهم وتطلعاتهم وتوقعاتهم ازدادت جدية المشاركين فيه وأصبحوا أكثر قدرة على اتخاذ قرارات ذات أبعاد استراتيجية وذات احتمالات تطبيقية "معقولة". وربما يؤدي المؤتمر المحدود إلى تشجيع آخرين نحو الانتقال استراتيجيا في مواجهة التحديات وإلى تفاؤل في الشارع العربي والإسلامي مما يدفع نحو المزيد من المشاركة الجماهيرية.

وتبقى المشكلة في أن البعض يحاول أن يتوارى في المؤتمرات المحكوم سلفا بعدم فعاليتها حيث أنها توزع مسؤولية الفشل على الجميع دون تحديد لمدى مسؤولية كل طرف. وفي هذا ما يبقي الباب مفتوحا أمام كل طرف ليبعد التهمة عن نفسه ويسقطها على الآخرين مما يوفر الشعور المزيف بالراحة والاطمئنان ويعطي المناخ المناسب للمزايدة التي تلائم الطرف المعني. يُعقد مؤتمر ويُفض آخر والثمن يدفعه أبناء الأمة الذين يبقى الأمل دافعا لهم نحو الأمام.